خاتمة

يمكن تصنيف هذا الكتاب بأنه من كتب الفكر السياسي،ومن المعروف أن الفكر السياسي في أحد جوانبه،يقوم على دراسة الإنتاج الفكري لأحد المفكرين، بغية التعرف إلى سمات المرحلة التي عاصرها وقضاياها وعلى الحلول المطروحة لحل مشكلاتها،وبهذا المعنى يهتم الكتاب بإلقاء الضوء على فرانز فانون، باعتباره مفكرا له إسهاماته الفكرية المتعددة المشتبكة مع قضايا العصر كما طرح رؤى استدعت جدلا واسعا بين أوساط المثقفين من كافة الاتجاهات مابين مؤيد ومعارض،وبدورها، وفي هذا الكتاب حاولت تتبع سيرة هذا المفكر الاستثنائي وكيف تفاعل مع عصره تأثرا وتأثيرًا من خلال دراسة ظروف النشأة والتكوين وتجاربه الشخصية،مستخلصة كيف أثرت هذه الظروف على أفكاره، ثم التطرق إلى قضايا العصر والتحديات الكبرى التي عاصرها، بتناول قضايا الاستعمار والتحرير الوطني و التفاوت الاقتصادي بين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث، وذلك في إطار السياق الحضاري للعصر وتياراته السياسية والفكرية،ثم التطرق إلى دراسة إنتاجه الفكري بهدف التعرف إلى طبيعة المضامين الفكرية والسياسية التي طرحها في كتاباته وتفسيرها، والإجابة على تساؤل: إلى أي مدى استطاع فانون الاستجابة لقضايا عصره والتصدي لمشكلاته، و مدى صحة ما ذهب إليه في مواجهة العصر، وإلى أي مدى تلاءم هذه الأفكار واقعنا المعاصر.

وتوصلت الدراسة على مدى فصولها الثلاثة إلى الاستخلاصات التالية:

أولا: أن ظروف النشأة والتكوين والخبرات والتجارب التي عاشها كان لها أثرها الكبير على أفكاره وتوجهه المستقبلي،فكون مولده من أسرة تنتمي الى النخبة الميسورة الحال في جزر المارتنيك الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي الذي يتبع سياسة الاحتواء للمستعمرات الواقعة تحت سلطته، مكنه ذلك من استكمال تعليمه العالي في جامعات فرنسا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية،فدرس الطب النفسي في جامعة ليون، ومكنته دراسته للطب النفسي من التحليل العميق للظاهرة الاستعمارية ومكنه

التفسير النفسي لهذه الظاهرة من التوقف أمام التأثيرات التي يحدثها الخضوع للمستعمِرْ على نفسية المستَعمَرين

والدور الذي يقوم به المستعْمِرْ في مسخ المستَعمَرين وتيسير خضوعهم له،إلى جانب أن ممارسة فانون للعلاج النفسي واحتكاكه بالجزائريين والأفارقة الفقراء في مستشفيات باريس أولا ثم بالجزائريين في مستشفي بليدة، هذه الممارسة أغنت مفاهيمه وأوصلته إلى بعض القناعات الأساسية ومنها اقتناعه "بأن توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية "وهذا مما حدا به إلى تقديم استقالته من عمله في مستشفي بليدة في لحظة صدق مع النفس بعد وصوله إلى استحالة العلاج الكامل للمرضى الجزائريين في ظل النظام الاستعماري الذي يمارس أقصى درجات القهر والعنف على الجزائريين.

وخلصت الدراسة إلى أن دراسة فانون للطب النفسي كان لها أعمق الأثر على تكوينه الفكري وفهمه ورؤيته للاستعمار وعلى جتمية وضرورة التخلص منه والقضاء عليه.

ومن جانب آخر فإن تواجد فانون في فرنسا في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مع ما كانت تموج به باريس في ذاك الوقت من تيارات فكرية وفلسفيه مع وجود مشاهير المثقفين والفلاسفة المعاصرين وفي مقدمتهم جان بول سارتر،مما أتاح له فرصة الالتقاء بعديد من الشخصيات التي تركت بصماتها على تفكيره وعلى رؤيته وتوجهاته، وفي هذا الصدد فإن سارتر هو كاتب المقدمة لكتاب فانون الشهير "معذبو الأرض ".

وفي فرنسا وإلى جانب دراسته للطب النفسي، فقد انخرط فانون في دراسة الفلسفة وقرأ لماركس وهيجل وسارتر وآخرين، ودرس الفكر الغربي بكافة مدارسه، وارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة مما أمده بثقافة إنسانية واسعة كان لها انعكاسها على أعماله الفكرية فيما بعد.

وعن تجاربه الشخصية وخبراته العملية ومدى تأثيرها عليه، فقد وضح أن تجربة فانون في التحاقه بقوات فرنسا الحرة تحت قيادة الجنرال ديجول وانخراطه في صفوف المقاومة ضد النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، هذه التجربة حملت إليه وعياً مبكراً في أكثر من اتجاه، ففيها عايش واقعاً من الظلم وعدم المساواة والاستعلاء

العنصري الذي كان يمارسه الجنود الفرنسيون البيض على غيرهم من الجنود الملونين والمفترض أنهم مواطنون فرنسيون، وفانون وهو الأسود والذي تطوع ليدافع مع الفرنسيين عن قضيتهم فوجئ بهذا السلوك العنصري الذي شكل وعيه المبكر بوضع الإنسان الأسود وضرورة تحرير الإنسان من كل الأغلال والقيود، وفي إيجاز لتجربة الحرب ودورها في التكوين الفكري لفانون، يمكن القول أنه اكتشف أثناءها الممارسات العنصرية الشائعة، كما أنها من الممكن أن تكون قد أكسبته ثقافة المقاومة والتي قد تكون هي البداية الجنينية في وعيه والتي ترجمت نفسها فيما بعد في انضمامه إلى الثورة الجزائرية وتبنيه قضايا "معذبى الأرض".

وتجربته الحية الأخرى، هي تجربة الانتقال إلى الجزائر للعمل في مستشفاها للطب النفسي ثم الانتقال بعد ذلك للعمل في صفوف جبهة التحرير الجزائرية، ومن خلال هذه التجربة فإنه وجد ما كان ينشده، حيث هيأت له ميدانا يسمح له بأن يخوض معركة كلية ضد الاستعمار، وفي نطاقها تم أول اتصال له بأفريقيا بتعيينه عضوا في الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا حيث تعرف الى عدد من القادة الأفارقة(نكروما ولومومبا وفيليكس موميه)، وتخلص الدراسة إلى أن للثورة الجزائرية والممارسة الفعلية في إطارها دوراً كبيراً في إنضاج أفكار فانون فباندماجه الكلى في الثورة وملاحظاته على المجتمع الجزائري والتحول الذي حدث له بسبب الثورة، تشكلت خبرة عملية كانت هي الأساس في معظم ما كتبه فانون في هذه المرحلة.

وعن سماته الشخصية، فإنه كان مؤمنا بالإنسان كقيمة. وهيأه ذلك لتبنى قضية الإنسان في الجزائر و المستضعفين في كل مكان، مما حدا بالبعض أن يعتبره مناضلاً أممياً يعشق الحرية ويقدس العدالة، وعلى الرغم من أن الباب كان مفتوحاً أمامه ليلتحق بصفوف النخبة إلا أن سجاياه والقوى الشخصية المميزة له دفعت به بعيدا عن الاستفادة من مهاراته الشخصية الخاصة، وعلى الرغم من محنة المرض والموت الذي بات وشيكا منه، إلا أن همه الشاغل كان هو الإنتهاء من كتابه "معذبو الأرض"، وكان قوله لأحد أصدقائه " إنى مازلت أفكر في الناس الجزائريين، في ناس العالم الثالث، وأن ما قمت به كان من أجلهم"، ذلك مما دفع بالدراسة؛ لأن تعتبره على درجة عالية من الإخلاص للهدف والقضية التي كرس نفسه لها،ودليلا على طبيعة تكوينه المتميز.

- **ثانيا:** وفيما يخص قضايا العصر وتحدياته، نتهي الى أن الاستعمار بمفهومه الحديث يعود إلى تاريخ قيام النهضة الأوروبية بدءا من القرن الخامس عشر وإلى حركة الكشوف الجغرافية، وأن التوسع الاستعماري قد ازداد خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد تمكن البورجوازية الأوروبية من إقامة الدولة القومية وانتهاجها أسلوب الإنتاج الرأسمالي ودخولها مرحلة التنافس والصراع فيما بينها من أجل الاستحواذ على المناطق الغنية بالمواد الخام الأولية اللازمة لمصانعها ولفتح أسواق جديدة أمام منتجاتها. وفي استجابة للمتغيرات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وظهور الكتلة الاشتراكية وتنامي الوعي السياسي والفكري لدى شعوب الدول المستَعمَرة، اضطرت لدول الاستعمارية إلى الانتقال من طور الاستعمار التقليدي المباشر إلى الطور غير المباشر والذي اتخذ مسمى الاستعمار الجديد وهو الأكثر تنوعا في تعقيده وأدواته، ويكمن خطره في استخدامه لأساليب أكثر تمويها واتباعه أساليب غير مباشرة في السيطرة على الدول المستقلة حديثا ولكن يبقى جوهر الاستغلال واحدا في الحالتين.

وقد عرفت أفريقيا إلى جانب الاستعمار التقليدي والجديد أسوأ أنواع الاستعمار وهو الاستعمار الاستيطاني و عنت آثار السيطرة الاستعمارية المتمثلة في نهب الثروات وتدمير البني الاجتماعية التقليدية وطمس التاريخ والهوية الأفريقية، والعمل على تفتيت القارة للوقوف أمام تحقيق وحدتها والإبقاء على تخلفها، وبتقويض الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تكون الدول الاستعمارية قد وفرت كل شروط التخلف الذي ظلت أفريقيا تعاني منه طوال الفترة الاستعمارية والذي امتدت آثاره إلى الآن.

وعن قضية التحرير الوطني، توصلنا إلى أن المتغيرات الدولية وفي مقدمتها قيام الحروب العالمية الكبرى خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتغير موازين القوى العالمية التي أدت إليه نتائج هذه الحروب، هذا إلى جانب الممارسات العنيفة للدول الاستعمارية، قد وفرت شروط قيام ونهوض حركة تحرير وطني ردا على التحدي الاستعماري.

وبشأن التفاوت الاقتصادي بين دول المراكز الاستعمارية ودول العالم الثالث، فإن هذا التفاوت يعود بالأساس إلى النهب الاستعماري الذي مورس طوال الفترة

الاستعمارية، إلى جانب استحواذ الدول الرأسمالية على الجزء الأكبر من الفائض الاقتصادي الذي يتولد في الدول النامية، مع فرض نمط من النمو غير المتكافئ، مما أدى إلى غنى متزايد لدول المراكز الاستعمارية وفقر يزداد حدة في الدول المستعمَرة.

ثالثا: وعن طبيعة المضامين الفكرية والسياسية لكتابات فرانز فانون، وإلى أي مدى كانت تعبيرا عن قضايا عصره، فإن الدراسة تخلص إلى أنه أولى قضايا العصر كل اهتمامه فتناولت كتاباته بشيء من التفصيل كل من قضايا الاستعمار والتحرير الوطني والتفاوت الاقتصادي بين الدول المتقدمة والعالم الثالث.

فعن الاستعمار يتبين أن فانون كان ذا نظرة شاملة له، فهو يراه تنظيم سيطرة أمة على أخرى إثر غزو عسكري، وأنه نفي منظم للآخر وإنكار كل صفة إنسانية عليه، ويتناول في كتاباته خصائص الاستعمار، من أنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا ويستمد شرعيته من القوة وأن العنصرية تشكل أحد قسماته البارزة، كما أنه أوضح الأساليب التي يتبعها الاستعمار في مواجهة الشعوب المستعمرة، وكذلك التأثيرات السلبية التي يحدثها الاستعمار على مستوى الأفراد والبنيات الاجتماعية، ويحدد كذلك أسلوب المواجهة، ورؤيته بأن الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالإقناع، وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف الذي يراه كرد فعل على عنف المستعمر، وهو في ذلك يُحمِّلُ المستَعْمِر المسؤولية عن ثقافة العنف بخلقه مناخاً عاماً من الممارسات العنيفة الوحشية، وتخلص الدراسة إلى أن للعنف عند فانون سماته وخصائصه، فهو ليس عنفا للعنف ولكنه عنف مفروض وضروري وهو عنف ثوري ومشروع، يستمد شرعيته من كونه دفاعا عن النفس وأنه ينشأ كرد فعل لحالة القهر والقمع الاستعماري. وتخلص الدراسة إلى أن أفكار فانون حول العنف والاستعمار والتحرير الوطني هي انعكاس لتجربة معاشة في سياق حركة تحرير وطني تخوض نضالاً مسلحاً من أجل التحرير، ولذلك فإن أعماله يجب أن تقرأ ليس كفكر نظري عن الطبيعة الاستعمارية ولكن أيضا كنتيجة لخبرة شخصية شاملة، وتخلص الدراسة أيضا وتتفق مع الرأي الذي يرى أن بعضا من ناقدي أفكار فانون حول العنف، والذين ربطوا بينه وبين الإرهاب، قد وقعوا في خطأ منهجي في تجاهل السياق الزماني والمكاني لأفكاره، وأن قراءة فانون من جانبهم كانت قراءة انتقائية عزلت بعضا من أفكاره عن نصوصه وأفكاره الأخرى، وارتأت الدراسة أن هذه القراءة الانتقائية تتعدى كونها مجرد قصور منهجي؛ لأنه من الصعوبة بمكان تصور أن تغيب

أبجديات البحث العلمي عن أي باحث يتحرى الحقيقة، وأن هذا الذي ذهب إليه بعض النقاد، إنما تم عمداً بغية تشويه أعمال فانون وتفريغها وتجريدها من مضمونها ومحاصرة تأثيرها على زنوج أمريكا الذين قاموا بحركة الحقوق المدنية وعلى الشباب الأوروبي والذي قام بما عُرِف بثورة الطلاب في فرنسا في عام ١٩٦٨، وترتكز الدراسة في هذه الرؤية إلى ما هو معروف من أن للمراكز الاستعمارية مفكريها ومراكز دراساتها وأبحاثها التي تعمل على توظيفها لخدمة أهدافها وأغراضها السياسية، وتعمد في ذلك إلى أسلوب خلط الحقائق وتزييف الواقع والوقائع.

وفي سياق قضية التحرير الوطني، فإن الكاتب تتبنى رؤية فانون من أن حركات التحرير لا تنبت من فراغ فهي امتداد لكفاح متصل لأجيال سابقة، وكذلك فهي لا تدور في فراغ وإنما إلى جانب اعتمادها على الشعب فهي تركن إلى تضامن دولي وإلى ظروف دولية ملائمة، وأن البيئة الدولية ومناخ ما بعد الحرب العالمية الثانية هي بيئة ومناخ يعمل لصالح قضية التحرير الوطني .

وعن دور القوى الاجتماعية المختلفة في حركة التحرير الوطني، فإن العامل الحاسم في تحديد خيارات كل قوة هو تكوينها الثقافي وأين تكمن مصلحتها فبقدر ما تكون هذه القوى بعيدة عن التأثير الثقافي الاستعماري وبقدر ما أن مصالحها لا تلتقي مع المصالح الاستعمارية فإنها تكون أقرب الى فكرة المقاومة المسلحة وأكثر جذرية في العمل من أجل التحرر والاستقلال، ووفق هذه المحددات فإنه يرى الفلاحين قوة ثورية لها دورها الرئيسي في النضال ضد الاستعمار ويُلحق بهم في الأهمية فئة

البروليتاريا الرثة، وهم الفئة الدنيا من انفلاحين الذين هجروا الريف بحثاً عن عمل ولم يستطيعوا دخول المدينة فاستقروا في أطرافها، واعتبر أنهم لظروفهم المعيشية الصعبة فإنهم يشكلون احتياطياً كبيرا للعمل الثوري، وأنهم يكونون رأس الحربة لنقل المعارك إلى المدن بشرط أن تبادر قيادة الثورة إلى تنظيمهم.

وعلى العكس من الفلاحين والبروليتاريا الرثة فإن فانون يعتبر أن بروليتاريا المدن هي فئة لا يستغنى عنها الاستعمار لحسن سير الآلة الاستعمارية ولذلك فهي تتمتع ببعض الامتيازات في ظل النظام الاستعماري وينفي عنها أي طابع ثوري نظراً لأن لديها ما تخسره بالثورة.

وفيما يخص البورجوازية الوطنية فإن فانون يخلص إلى أن البورجوازية

المحلية ليس لها دور إيجابي في حركة التحرير الوطني في مرحلتها الأولى وهي الكفاح المسلح من أجل الاستقلال ولا ينبغي أن يكون لها دورٌ في المرحلة اللاحقة للاستقلال وأي دور تقوم به هو دور معوق للتقدم ولا يصب في صالح التنمية. وقد أوردت الدراسة الرؤى المختلفة مع رؤية فانون لدور الطبقات الاجتماعية وخلصت في ذلك إلى أن معظم الرؤى المختلفة تستند إلى أسانيد نظرية أو عقائدية في فهمها لدور الطبقات. بينما فانون يستمد رؤيته من خلال تجارب واقعية معاشة وفي إطار حركة تحرير وطني وأن معظم هذه الاختلافات تسقط لو أن الحديث عن الطبقات ودورها كان يتم في ظروف ما بعد إنجاز مهام التحرير الوطني.

وفيما يخص العلاقة بين حركة التحرير الوطني والثقافة الوطنية، فإن الدراسة تخلص إلى أن الاستعمار يعمل على تجميد الواقع الثقافي للمجتمع المُستَعمَر، وأن هناك علاقة ارتباط متبادل بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة وبذلك فإن التحرر القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة وازدهارها، ويُرَتِب ذلك على المثقف دورا يؤديه وهو المشاركة في معركة التحرير؛ لأن الثقافة القومية تتشكل من خلال تجارب الكفاح وليست سابقة عليها وإذن فإن الطريق إلى الثقافة الوطنية يمر من خلال معارك التحرير.

وعن الوعي وأهميته في معارك التحرير، أدركنا أهمية الوعي وضرورته من أجل تحقيق الانتصار في معركة التحرير، وبالوعي يمكن تجاوز المخاطر التي تواجه الكفاح وبه ينتقل الشعب من أفق الوطنية العامة الى أفق أرحب وهو أفق الوعي الاجتماعي الاقتصادي، والوعي المقصود ليس مجرد الوعي الفردي على أهميته ولكنه وعي المجموع.

وفي جانب تَنَاوُلِ رؤيةِ فانون لواقع الدول الأفريقية غداة الاستقلال، نستخلص رؤية فانون في أن هذا الواقع يحمل عدداً من المخاطر التي يقف في مواجهتها موقفا حاسماً برفض الإملاءات الغربية وشروطها التي تحاول فرضها، ويرى في هذا الإطار أن المساعدات الغربية يجب النظر إليها على أنها حق وليست منحة، وأن الشعوب المتخلفة تخطئ إذا هي استجدت المعونة من البلاد الرأسمالية وعليها أن تدرك أن مطالبتها بالتعويض عن النهب الاستعماري الذي تعرضت له هو حق وعدل.

وعن رؤية فانون للطريق الذي يرى أن على دول العالم الثالث أن تسير في اتجاهها لتحقيق التقدم، هي رؤية شاملة مست كافة القضايا التي تخص الأفراد والمجتمع بكل فئاته ولم تقتصر على جانب واحد سياسيا كان أم اقتصاديا أم اجتماعيا وهى رؤية (كما ترى الدراسة) مازالت تصلح للطرح على مجتمعاتنا في وقتنا الحالي.

رابعا: وفي الباب الثالث الذي خصص لدراسة للعلاقة بين فانون والثورة الجزائرية وعلاقة الثورة بالمجتمع، فقد تم التوصل إلى عدد من الاستخلاصات:

– أن انتقال فانون إلى الجزائر يمثل فاصلاً بين مرحلتين متميزتين في حياة فانون، وأن انتقال فانون إلى الجزائر هيأ له ظروفا لم تكن لتتاح لو أنه انتقل إلى مكان آخر.

– أن انضمامه إلى الثورة الجزائرية قد مكنه من مشاهدة حقائق الواقع بعيداً عن التجريد و التنظيرات الفلسفية مما مكنه وسهل له تغير أفكاره بالتفاعل مع الأحداث وتطورها.

– أن تمثيل فانون للثورة الجزائرية في أفريقيا أتاح له التعرف على تجارب هذه البلدان وكذلك فالتقاؤه بالقادة والنخبة من السياسيين الأفارقة أتاح له قدرا من التفاعل والتواصل المشترك وأسهم هذا بدوره في تطوير وعى وفكر فرانز فانون وفي صقله وساهم ذلك كله في أن يكون فانون هو ذلك المفكر النظري والمؤلف لكتاب "معذبو الأرض".

– أن الثورة الجزائرية أحدثت تغييراً كبيراً على أرض الواقع، مس كلا من الأفراد والمجتمع والقيم.

وفي هذا الخصوص فإن المرأة الجزائرية لعبت أدوارا متعددة في الثورة الجزائرية تظهر إلى أي مدى لعبت الثورة دورها في التجدد الداخلي للمرأة وكيف أنها رفعت مكانتها إلى مستوى غير مسبوق ربما يتجاوز طموحاتها التي تتطلع إليها في الوقت الحاضر، وامتد التغيير ليطال كل العلاقات الأسرية بالشكل الذي لم يكن واردا في سياق التطور الطبيعي لأي مجتمع، ولا توفره إلا أجواء معركة كبيرة هي معركة التحرير والتي توفر في سياقها تحرر الإنسان الفرد من كثير من قيم الجمود وتنزع به نحو التحرر الإنساني الشامل على كل الأصعدة .

وعن تأثير الثورة في المجتمع، توصلنا إلى أن السيطرة الاستعمارية تفرض على المستعمَر أن يقف موقف الرفض لكل ما يأتي به الاستعمار دون تفريق بين ما يمكن أن يكون إيجابيًا أو سلبيًا، مما يؤدى إلى تكريس حالة من التخلف تستمر طوال فترة الخضوع الاستعماري، وبالثورة فإن هذه الحالة تتبدل وتتغير وتتطور بتطور كفاح التحرير ويصير المواطن منفتحا على التجدد وينزع إلى التعامل مع ما كان يرفضه سابقا ويتخذ منه موقفا سلبيا متشككا، وتصل الدراسة إلى خلاصة مؤداها، أن الثورة التي يقوم بها الشعب للحصول على استقلاله وحريته يمتد تأثيرها إلى كل مناحي الحياة وعلى كل المستويات الفردية الشخصية أو الجماعية على مستوى الأسرة والمجتمع ككل، وأن الثورة تحمل معها روحاً جديدة وقوة دفع تضع المجتمع كله على أعتاب مرحلة جديدة يتخلص فيها من سلبيات المرحلة الاستعمارية وجمودها.